مجلة الرائد

العدد : ٢٠١ الموافق في ربيع الثاني ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٨ ميلادي

عنوان المقال : الهوية الإسلامية في الغرب « المشكلة والحل » -١-	الكاتب : أ. متولي موسى

أولاً : هوية الفرد... وهوية الأمة

ورد في المعجم الفلسفي تعريف الهوية أنها : " حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره "[١] ، وقال الفارابي في تعريف هوية الشيء أنها : " وجوده المنفرد له ، الذي لا يقع فيه اشتراك ".[٢]

وبناءً على ذلك فإن هوية الإنسان لا تشمل المشخصات الحسية الجبلية فقط ، وإنما تتعداها إلى الخصائص الفكرية والاعتقادية والسلوكية والأخلاقية المكتسبة ، وتعتبر هذه الخصائص المكتسبة مناط التمييز والتمايز للفرد والأمة .

ولقد جاء في الوحي ما يبين أن الإنسان كائن واضح المعالم ، فطره خالقه على الحنيفية ، ففي الحديث القدسي : « وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم » [رواه مسلم] ، وقال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » أي الإسلام كما ذكر ذلك الإمام البخاري راوي الحديث في صحيحه . وهذا الذي ذكره الله تعالى في قوله : { **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** } [الروم:٣٠].

ولكن الإنسان الفرد إذا صار أمة اكتسب كياناً مغايراً في خصائصه ، مما يقتضي أن تكون هويته أمة مختلفة عن هويته فرداً ، فيطلق على الرجل الجامع لخصال الخير أمة : { **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين** } [النحل:١٢٠]. كما تطلق الأمة على الدعاة إلى الحق : { **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** } [الأعراف:١٥٩]. كما تطلق الأمة على طائفة أو جماعة لها تصورها عن الكون ونهجها : { **وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك** } [الأعراف:١٦٨] ، وقد تطلق الأمة على جماعة ذات خصائص مشتركة : { **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم** } [البقرة:١٣٤] ، { **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** } [يونس:١٩].

وخلاصة الأمر : يقصد بمصطلح الهوية الإسلامية : الخصائص التي تميز المسلم الذي آمن بما نُزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد ﷺ ، قولاً باللسان واعتقاداً بالجنان وعملاً بالأركان . على أن

أبرز الأمور في تكوين الأمة هي العلاقات التي تنتظم الأفراد المكونين للجماعة ، والعلاقات التي تنتظم طوائف المسلمين على اختلاف أمكنتهم وأزمانهم ، وهذه العلاقات ذات دوائر متداخلة ، فثمة علاقات تنتظم الأسرة ، وأخرى تنتظم جماعة في مكان معين ، وثالثة تنتظم أفراد الأمة جميعاً .

ثانياً : صراع الهوية

وبناء على ما سبق فإن وجود الجالية المسلمة في الغرب قد فرض عليها وعلى المجتمعات الغربية حالة من الأخذ والرد ، وهو ما نعبر عنه بـِ « صراع الهوية » المتمثل في مجموعة من السمات ، نذكر أهمها :

١- **الحاجة إلى الشعور بالانتماء** : فالإنسان بوصفه كائناً حياً ، فطره الله تعالى على الشعور بالانتماء ، فهو في حاجة إلى أسرة يحبها وتحبه ، وإلى جماعات في بيئته ومجتمعه مثل : جماعة الأصدقاء ، والحي ، والمدرسة ، والنادي... الخ ، كما أنه في حاجة إلى ثقافة ينتمي إليها ، وإلى وطن يعتز بالانتماء إليه... الخ ، وتتجلى عملية إشباع هذه الحاجات في الاستمتاع بالعلاقات الحميمة والروابط القوية التي تربط الإنسان بالأسرة والجماعات المحيطة ، وحين يشعر الإنسان بعزلته ، أي بعدم الانتماء إلى البيئة المحيطة ، يعتريه القلق والضيق ، وتظهر عليه الكآبة النفسية ، وتتعقد حياته الاجتماعية ، وتبرز المشكلات بوصفها عقبات تحول بينه وبين الأهداف التي يطمح إلى تحقيقها .

وعدم إشباع حاجة الانتماء من الظواهر المصاحبة لوجود المسلمين بجميع فئاتهم - الجيل المهاجر ، ومن ولد في الغرب ، ومن أسلم من أبنائه في ديار الغربة - فبحكم تلازم تعامل المسلمين مع مؤسسات المجتمع الغربي ، تنشأ علاقات ومعاملات ، ولابد من وجود أخذ ورد بين المسلمين والمؤسسات الغربية التي يحتكون بها ، وكل ذلك لابد له من التأثير على سلوك المسلمين وشخصيتهم وهويتهم .

ومع تصاعد موجات العداء للمهاجرين المسلمين بصفة خاصة ، وتردي الأوضاع الاقتصادية في البلاد الإسلامية - والعربية منها خاصة - تزداد الضغوط والأثقال على المسلمين في الغرب ، ويشعر كثير منهم بفقدان مسوغ حياتهم متمسكين بدينهم ، وخاصة أن الوجود الإسلامي ضعيف على المستوى العالمي... فإذا أضفنا إلى ذلك شعور عامة المسلمين بتفوق الغرب الحضاري والتقني... وازدراء أهله للإسلام والمسلمين ، فإننا ندرك مدى ما يعانيه كثير من المسلمين من ذلك .

النتيجة الواقعية

هناك اختلال في التوازن بين المسلمين والبيئة المحيطة بهم في الغرب ، في مجال الانتماء ، إذ يشترط لإشباع الحاجة إلى الانتماء ، أن تتقبل المؤسسات الاجتماعية الفرد ، وأن تظهر هذه المؤسسات تقبلها له ، وأن تعتز بعضويته وانتمائه إليها ، وأن يشعر الفرد بانتمائه العضوي إليها . والواقع العملي يؤكد أن الانتماء بهذه الصورة غير متحقق لغالبية المسلمين ، فضلاً عن الضغوط الاجتماعية التي يتعرض لها المسلم ، وقد تدفع هذه الضغوط عدداً من المسلمين إلى التفكير بما يلوح لهم أنه حل لهذه الأزمة ، مثل :

١- الزواج من أهل البلاد الأصليين ، وأقصد بذلك : زواج الرجل المسلم من امرأة أوروبية - مسلمة أو غير مسلمة - وزواج المرأة المسلمة من رجل أوروبي - مسلم أو غير مسلم !!!

٢- الانسلاخ من الإسلام وإظهار العداء للإسلام والمسلمين .

٣- الجنوح إلى الجريمة ، أو الإقبال على إدمان المخدرات ، أو الإقدام على إزهاق الروح بالانتحار !! ، وهذه الحال يطلق عليها : محاولة الانسحاب من المجتمع ، للاعتقاد بأن الفرد فقد مهمته ، ولم يعد له مسوغ للوجود في المجتمع الذي يعيش فيه .

٢- تعارض الثقافة الغربية مع الإسلام

من أبرز مميزات الثقافة أنها خاصية ينفرد بها الإنسان ، ذلك أن الثقافة في مختلف جوانبها هي في الأصل أفكار يأتي بها العقل البشري ، وينفذها الإنسان بأعضائه وبواسطة الأدوات والآلات التي يصنعها ، ومن ناحية أخرى ، فإن الثقافة تتميز بطابعها الاجتماعي ، أي أنها لا توجد إلا في مجتمع إنساني ، وإذا نظرنا إلى ثقافات المجتمعات كل على حدة ، فإننا نجدها مختلفة المضمون ، حتى أنها قد تصل إلى درجة التناقض والتعارض أحياناً ، فكثير من المحرمات في الثقافة الإسلامية مباحة في الثقافة الغربية .

والمستقرئ لواقع الجاليات الإسلامية في الغرب ، يجد أنها تعاني من فرض الثقافة الغربية عليها ، ومن مطالبها بالتخلي عن الثقافة والهوية الإسلامية ، والقبول بالتمثل التام ، أو ما يعبر عنه بالألمانية " Assimilation " ، وأصحاب هذا الرأي يطالبون المسلمين باعتبار الثقافة الغربية هي المرجعية .

وأما التأثير الفعلي للثقافة الغربية فهو واقع عبر وسائل التعليم والتربية والإعلام ، وعبر التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتي لها تأثيراتها على الثقافة ووسائلها ، كما تساهم فعاليات المجتمع الغربي أفراداً ومؤسسات على الهوية الإسلامية والتوجه المستقبلي ، ومع كل حدث كبير يقع في بلاد المسلمين يظهر ما هو مكنون في ضمائر الغربيين وما هو حبيس في الدوائر الخاصة خلف الأبواب .

لا شك في أن الفترة الحالية فترة حاسمة ، لأنها تتطلب تحديداً للمصير الحضاري للمسلمين في الغرب ، بعد أن تكاثرت الأصوات وتداخلت ، وتعددت الآراء وتنوعت ، حتى أننا أصبحنا نجد على ساحات الحياة في البلاد الأوروبية خليطاً من الرؤى والمقترحات التي يظهر فيها التناقض واضحاً في الأدلة والبراهين ، واجتماع الموروث بالجديد ، ولا شك أن هذا التراكم الكمي ، والتنوع الكيفي ، فيما يعرض من آراء وحجج سواء من قبل مسلمين أو مفكري الغرب ، يترتب عليه صعوبة كبيرة في إقناع

الشعوب الغربية باتخاذ موقف إيجابي من المسلمين .

خلاصة الأمر :

بعد سقوط جدار برلين وانتهاء الحرب الباردة بين الغرب وشرق أوروبا ، نشأ حوار فكري نشيط حول صراع الحضارات ونظرية نهاية التاريخ ، وحفلت وسائل الإعلام بمقابلات وحوارات تتعلق بمستقبل أوروبا في ظل الظروف الاقتصادية الحرجة ، مما جعل الأصوات المنادية بإخراج المسلمين من أوروبا أو بانسلاخهم عن دينهم هي الأعلى والأقوى .

٣- فصل المسلمين عن لغة القرآن

دلت التجارب على أن إدراك الطفل لمعاني الأشياء مقترن بتقدمه في اللغة ، كما أن الوظيفة اللغوية تتماشى مع إدراك الطفل وتنمو بنمو هذا الإدراك . فاللغة هي الوسيلة التي تجعل الإنسان يتجاوز وجوده البدني والمادي إلى الوجود الفكري ، وهي التي تنقل إليه أفكار وتراث وثقافة الأجيال السابقة . ولولا اللغة التي تصل أفكار الأجيال المتلاحقة بعضها ببعض لضاعت أفكار البشر منذ الخليقة ، وهنا نلمس بوضوح علاقة اللغة بالتاريخ والثقافة .

والملاحظ أن كل الأدوار والوظائف التي تقوم بها اللغة في المجتمع لا بد أن نجد لها علاقة ما بالثقافة . إن العناصر المعنوية للثقافة ؛ كالدين والتاريخ والأدب لا تُعرف إلا باللغة ، كما أن العناصر المادية للثقافة لها صلة متينة باللغة ، لأن هذه العناصر هي في حقيقة الأمر عناصر فكرية مجسدة في أعمال ، ويظهر الارتباط بين اللغة والثقافة في أن هذه الأخيرة تساعد على تطوير اللغة وإثرائها ، بما تحققه من اختراعات مادية وإنتاجات فكرية وفلسفية .

وهناك من يرى بأن نضوب معين الثقافة وتوقفها عن الاختراع المادي والفكري يؤدي حتماً إلى وقوف تطور اللغة في الدلالات والمعاني ، كما أن اللغة هي نفوس أصحابها وقلوبهم وعقولهم جميعاً ، وهي مرآة حياتهم ، ولولا اللغة لاندرج الإنسان مع الحيوان الأعجم في عالم البكم ، فما الذي يكشف عن

حقيقة الإنسان حياً ناطقاً عاقلاً عالماً شارعاً ؟!

فإذا أراد المسلمون ضمان استمراريتهم الحضارية ، وضمان مستقبل وحدتهم الثقافية ، وانسجام أفراد الأمة ، وتميز شخصيتهم ، فعليهم أن يولوا موضوع اللغة العربية عناية كبيرة ، تدريساً وتطويراً ، فاللغة العربية من أكثر العناصر الإنسانية التصاقاً بثقافة الأمة وبشعورها بهويتها وبمميزاتها الشخصية .

كما أثبتت التجارب في فرنسا أن المسلمين من جذور عربية إذا تعلموا في المدارس اللغة العربية ، فإن نسبة الإجرام تقل في حياتهم ، كما أن قدرتهم الإدراكية تزداد ، هذا الذي جعل بعض المسؤولين يطالب بإدخال نظام الدراسة باللغة المزدوجة ، والجميل في الثقافة الإسلامية العربية ، انها تكونت أساساً من الإسلام نفسه ، مضافاً إليه عناصر الثقافة التقليدية لكل بلد ، وقامت العربية بدور الأداة محافظة على ميزتها بوصفها لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولغة الدين الإسلامي ووعاء ثقافته .

للكلام صلة

الهوامش :

(١) المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ، طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة سنة ١٩٢٧م ، ص ٢٠٨.

(٢) الفارابي ، التعليقات ص ٢١ ، نقلاً عن : جميل صليبا - المعجم الفلسفي ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت سنة ١٩٧٣م ج٢ ص ٥٣٠.